

روح الميلاد

الأرشمندريت يعقوب كاناكيس

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

في هذا الوقت من السنة، يتحدث الناس كثيراً عن "روح عيد الميلاد". لكن هل نتحدث جميعاً عن نفس الشيء؟ لا أعتقد ذلك. يبدو لي أنه إذا كانت "روح الميلاد" هي الهدايا فقط، والتسوق بشكل عام، والوجبات العائلية، والتجمعات والاسترخاء، فإن عيد الميلاد، خاصة هذه الأيام، يجب أن يكون محيظاً جداً لكثير من الناس. إنه يسبب الاكتئاب، لأن الكثيرين منا لا يملكون القدرة على التسوق والخروج والاستمتاع. لكن الموضوع أكثر خطورة مما نعتقد، لأن له بُعداً آخر. حتى أولئك الذين يعيشون مع كل ما سبق، لا يزالون يعانون من نوع مختلف من التعاسة؛ هم أيضاً ليسوا مغمورين بالبهجة. من الواضح من وجوههم أنهم ليسوا سعداء، على الرغم من أنهم قد ينسون لبعض الوقت. لكن فرحتهم قصيرة العمر.

إذاً من الواضح أنه عندما نتحدث عن "روح الميلاد"، فإننا لا نعني نفس الشيء، إذ في الحقيقة هناك شيء آخر، مناخ مختلف تماماً. هذه الفترة الكاملة من الاثني عشر يوماً (عيد الميلاد ورأس السنة الجديدة والظهور)، هي حقاً خاصة. قد يكون الشتاء والبرد بالخارج عاملين في تشجيع الناس على التجمع في منازلهم، ليكونوا أقرب معاً ويشعروا بالدفع. إنه أيضاً الوقت الذي تدعو فيه الكنيسة أولادها إلى قريها، بتكثيف الخدم، وبعضها يكون "جديداً" لمعظم المصلين، كالساعات وما إلى ذلك. إنها التراتيل الاحتفالية والألحان، كل ذلك معاً بطريقة رائعة موحى به من الله. كما أنها أيضاً التقاليد الشعبية الغنية بالأناشيد والأغاني ومجموعة متنوعة من العادات المحلية.

لكنه أيضاً شيء آخر. تستدعي هذه الفترة الاحتفالية بأكملها شيئاً عشناه في طفولتنا البريئة الخالية من الهموم: عيد الميلاد يذكرنا بمن يجب أن نكون، أيها الأصدقاء. نتذكر براءة طفولتنا، ونسعى إليها من جديد. علينا أن ندرك أن عطلة الميلاد ليست فقط "للأطفال الصغار" الذين من المفترض أن يقضوا وقتاً ممتعاً. إذا قلنا ذلك، فإن الأمر يشبه التخلي عن المسؤولية والرغبة في الهروب من فراغنا. إنه ذريعة ضحلة وتواضع زائف. هذه الأعياد للجميع، وخاصة للكبار، إذ تُوفّر فرصة ذهبية، بطرق اقترحناها ودعمتها الكنيسة، لاختبار العودة إلى الطفولة. عيد الميلاد هو أيضاً للبعض الآخر، مثل كبار السن، الذين يعجزون عن أن يكونوا "أطفالاً" من جديد وهم الآن قرييون جداً من انتقالهم ليلتقوا بالمسيح مرة أخرى. يعيدنا هذا العيد إلى طفولتنا ويذكرنا بوجهتنا الحقيقية، كما حددها الرب عندما قال: "ارجعوا وصيروا كالأطفال الصغار"، أي في نقاوة قلوبنا وبراءتها.

إن ما هي روح عيد الميلاد؟ إنه العيد نفسه. إنه التجسد. يصير ابن الله ابناً بشرياً. أصبح المسيح إنساناً. هذا هو الحدث العظيم الذي يدفئ كل واحد منا ويدفئ البشرية جمعاء. هذه هي محبة الله الفائقة لنا التي جعلته "واحدًا منا". هذا هو الفعل الذي يلقي بعيدًا بمفهوم "الدين"، لأن الدين هو من صنع الله بواسطة نحن البشر، بينما ما نحن إليه هنا هو إعلان الله لنا. مع هذا التجسد، انفتح من جديد الطريق الذي كان مسدودًا إلى الجنة وأعيد بناء جسر تواصلنا مع الله. وأكثر من ذلك: اعتقد الفلاسفة أن من المستحيل أن يتحد الله معنا نحن البشر، ولكن لدينا الآن حقيقة جديدة، لأن المسيح بتجسده أعادنا إلى حالتنا قبل السقوط، إلى جمالنا السابق. نحن نحتفل لأننا نستطيع أن نصبح آلهة، بدون فنائية آدم وحواء التي تعني أننا كنا بدون الله وبعيدين عنه. نحن نتأله من خلال الله.

عيد الميلاد مهم جداً عندنا. لديه ما يقوله لكل واحد منا. إنه يملأ نفوس الناس. وهذا ينطبق بشكل طبيعي على الذين يرغبون في جعل قلوبهم مژودًا. عندما نحدد أهواءنا، ونتائجها التي هي خطايانا، ونبدأ مهمة تطهير قلوبنا، نبدأ المعاينة. نبدأ العيش في عيد الميلاد. وهكذا، يمكننا اختبار عيد الميلاد في عيد الفصح، في أي وليمة أخرى، أو في أي يوم آخر من العام. هذا هو المقصود بعبارة "اليوم" في الترانيم: "اليوم ولدت"، و"اليوم العذراء تلد الرب"، "لتفرح السماء والأرض اليوم نبويًا" [أي "بحسب للنبوءات"]، "اليوم اتحدت السماء والأرض". لهذا "اليوم" قوة عظيمة، قوة أبدية. عندما نتحقق وحدثنا مع الله، بشكل أساسي بالمناولة والصلاة، فإننا نعيش عيد الميلاد في كل لحظة. في الحقيقة، نحن نعيشه حقًا.

Source: Archimandrite Iakovos Kanakis. The Spirit of Christmas. Pemptousia. 23 December 2021.
<https://pemptousia.com/2021/12/the-spirit-of-christmas/>